

أحمد شوقي خارج القصيدة العمودية

من حكايا الأطفال إلى الشعر المنثور في "أسواق الذهب"

حورية الخمليشي

تمرّ ذكرى رحيل أحمد شوقي (١٨٦٨-١٩٣٢) فتستعيد معها سؤالاً لم يفقد راهنيته. كيف وسّع شوقي مجالات الكتابة من الشعر العمودي إلى الشعر المنثور وكتابة الرواية ثم المسرح الشعري وشعر الطفولة؟ فشوقي الذي بايعه الشعراء أميراً للشعر سنة ١٩٢٧ كان يمتلك موهبة شعرية كبيرة، وكان غزير الإنتاج، ملماً بالتاريخ قديمه وحديثه، مغرماً بالتاريخ الأدبي وبقراءة الشعر العربي القديم، فقلّد القدماء في كثير من الأغراض الشعرية كالغزل والفخر والوصف والمديح والرتاء وغيرها. وكان كذلك ملماً بالثقافتين العربية والغربية، ولا سيما الفرنسية التي تأثّر بشعرائها وفنونها، وبخاصة راسين وموليير ولافونتين. ويتجلّى هذا التأثير في كتابته للشعر التمثيلي والمسرحي وشعر الأطفال، فضلاً عن مجموعة من القصص ذات الطابع الشعري.

لكنّ أحمد شوقي لم يكن مجرد وارثٍ لتقاليد القصيدة العربية، بل كان قارئاً خلاقاً لها. حاور المتنبي والبحتري والبوصيري في معارضاته، فجعل من التراث مادةً للحوار لا للتكرار، وحمل غربته إلى الأندلس فكتب من منفاه شعراً يصل الحنين الفردي بذاكرة الأمة. ثم تجاوز حدود الغنائية حين أسّس المسرح الشعري العربي، فأثبت أن العربية تتسع للدراما كما تتسع للنشيد. ومن هنا لا تكون العودة إلى شوقي اليوم وقوفاً على أطلال الإحياء، بل مساءلةً لمعنى التجديد من داخل الأصالة، ولقدرة القصيدة على أن تظل ديواناً الأمة ومرآة تحولاتها. هكذا جمع شوقي بين استيعاب الموروث العربي والانفتاح على أشكال أدبية تعرّف إليها من خلال الثقافة الفرنسية. ومن هذا التفاعل نشأت محاولاته لتجديد موضوعات الشعر ووظائفه، والانتقال به من التعبير الغنائي إلى الحكاية والحوار والتربية.

١. "أسواق الذهب" ونثر شوقي الشعري

لم يحظ الإنتاج النثري لأحمد شوقي ما حظي به إنتاجه الشعري. وكتاب "أسواق الذهب" آخر إنتاجاته النثرية الذي طُبِع بعد رحيل شوقي سنة ١٩٣٢م. وهذا النثر أقرب إلى الشعر منه إلى القصص أو الروايات التي نشرها شوقي. فهو عبارة عن تأملات كُتبت في مراحل متفرقة. وقد سمّاه شوقي "فصولاً من النثر"، واختار لفصولة النثرية عنوان أسواق الذهب.

يقول شوقي في كتابه "أسواق الذهب": "وبعد؛ فهذه فُصولٌ من النثر، وما زَعَمْتُ أنها غُرُرٌ زياد أو فِقَرُ الفصيح من إياد، أو سَجْعُ المَطْوَةِ على فرعِ غصنها الميَّاد، ولا توهمتُ حين أنشأتها أني صنعتُ «أطواقَ الذهب»، للزَّخْمَشَرِيِّ، أو طبعْتُ «أطباقَ الذهب»، للأصفهاني، - وإن سُمِّيَتْ هذا الكتاب بما يُشَبِّهُ اسميهما، ووسمته بما يَقْرُبُ في الحسن من وسْمَيْهِمَا - وإنما هي كلماتُ اشتمَلَتْ على معانٍ شَتَّى الصُّورَ وأغراضَ مختلفةِ الحَبَرِ، جليلةِ الحِطَرِ؛ منها ما طال عليه القِدَمُ، وشاب على تناوُلِهِ القَلَمُ، وألَمَّ به الغُفْلُ من الكُتَّابِ والعَلَمُ".

فشوقي لم يُخَفِ تأثره بفصول النثر عند القدماء، كـ"أطواق الذهب" للزخمشري و"أطباق الذهب" لعبد المؤمن الأصفهاني، فاختار "أسواق الذهب" التي تُعرض فيها الأطواق والأطباق. فالنثر هو الذهب الذي تجتمع فيه هذه الكتب الثلاثة. فهل معنى هذا أن منزلة النثر عند شوقي أرفع من منزلة الشعر؟

والواقع أنَّ صِفَةَ الذهب يقاس بها الشعر كما يقاس بها النثر. فابن طباطبا يعرف الشعر بأنه "كلام منظوم"، والشاعر "كناظم الجوهر الذي يؤلف بين النفيس منها والثرمين الرائق، ولا يشين عقوده، بأن يفاوت بين جواهرها في نظمها وتنسيقها." فقد عشق العرب قديماً الشعر عشقاً كبيراً فوصفوه بالحليّ والجواهر الثمينة بما فيها الذهب واللؤلؤ والياقوت، ونجد مؤلفات تحمل أسماء الحليّ كـ"صهاريج اللؤلؤ" لتوفيق البكري، و"أطواق الذهب" للزخمشري، و"أطباق الذهب" للأصفهاني. وقد عنونَ شوقي نصوصاً مثل "الجندي المجهول" و"الوطن" و"الذكرى" بالشعر المنتثر. وهو اللون الذي نجد في كتابات أمين الريحاني و خليل مطران وجبران خليل جبران ونيقولا فياض ومي زيادة. وقد دعا في كتابه إلى الحرية

والدستور والوطن والأمة والإنسانية جمعاء. كما دعا إلى الخير ونبذ الظلم وتأثير فعل الزمن في الإنسان والأشياء. وحيّا إقامة النصب التذكاري للجندي المجهول في باريس في أعقاب الحرب العالمية الأولى، متعجباً كيف تكرم الأمة رمزاً لا تعرف اسم صاحبه.

٢. الشعر الطفولي بين المحاكاة والترجمة

أدب الطفل من المصطلحات المستحدثة في أدبنا العربي، فهو أدب مرحلة متميزة من عمر الإنسان، لها خصوصيتها، وإدراكها، وتكوينها في ضوء مفاهيم التربية المتكاملة للطفل، وطبقاً للمعايير التربوية، والثقافية، والعمرية التي تمتاز بها مرحلة الطفولة ذاتها. إلا أن معايير أدب الطفل غير واضحة المعالم، في معايير الأدب الحديث؛ إذ نجد إنتاجات متنوعة ومتعددة شعرية وسردية، طبقاً لمجالات تنوع جنس هذا الأدب. إلا أن الكثير من النصوص التي اطلعت عليها، لا تمثل أدب الأطفال بشكله الحديث أو المعاصر.

وقد اختلف النقاد في ريادة هذا الأدب، فمنهم من ينسبه إلى رفاعة الطهطاوي، ومنهم من ينسبه إلى محمد عثمان جلال، أو أحمد عبد المتعال، إلا أن أحمد شوقي يبقى أول من اهتم بأدب الطفل العربي بمفهومه الحديث كلون أدبي متميز عن أدب الكبار يماثل أدب الطفل في الدول المتحضرة إبان إقامته بفرنسا. ورغم أننا لا نجد تاريخاً محدداً لظهور أدب الطفل إلا أن فرنسا سبقت الدول الأوروبية في كتابة أدب الأطفال.

وأدب الطفل كان ضمن مشروع التحديث الشعري، الذي جاء به أحمد شوقي بعد عودته من فرنسا، ودعوته إلى ترسيخ أدب الطفل. يقول في مقدمة الشوقيات: "وجربت خاطري في نظم الحكايات على أسلوب (لافونتين) الشهير وفي هذه المجموعة شيء من ذلك فكنت إذا فرغت من وضع أسطورتين أو ثلاث أجمع بأحداث المصريين وأقرأ عليهم شيئاً منها فيفهمونه لأول وهلة ويأنسونه إليه ويضحكون من أكثره وأنا أستبشر لذلك وأتمنى لو وفقني الله لأجعل لأطفال المصريين مثلما جعل الشعراء للأطفال في البلاد المتقدمة منظومات قريبة المتناول يأخذون الحكمة والأدب من خلالها على قدر عقولهم".

ويضيف: "وهنا لا يسعني إلا الثناء على صديقي خليل مطران صاحب المنن على الأدب، والمؤلف بين أسلوب الإفرنج في نظم الشعر وبين نهج العرب. والمأمول أننا نتعاون على إيجاد شعر للأطفال والنساء وأن يساعدنا سائر الأدباء والشعراء على إدراك هذه الأهمية".

وهكذا نستنتج من كلام شوقي:

- أن أدب الطفل لون جديد من الأدب، يندرج في خانة الشعر الجديد والنماذج الشعرية التي دعا إليها الشاعر، كما أن الشعر الطفولي عبارة عن منظومات غنية بالحكمة والأدب، أي أنه لن يكون مقتصرًا على لون واحد، وهذا ما رمى إليه شوقي إذ اختلفت منظوماته بين الحكايات الشعرية، والمقطوعات، والأغاني، والأناشيد..

- تأثر أحمد شوقي بحكايات لافونتين، الذي كان متأثرًا بدوره بقصص كليلة ودمنة الواردة على لسان الحيوان، ومنها استوحى مادته الحكائية الخرافية مغدقًا عليها من شاعريته وفنه، فجاءت في سياق أوروبي حديث، يحمل معايير جمال لغته الفرنسية، إلا أن الجديد الذي تحمله هذه الحكايات هي أنها موجهة للأطفال، بينما حكايات كليلة ودمنة عند الفرس والعرب كانت موجهة للكبار.

- رغبة أحمد شوقي في كتابة أدب للأطفال في مصر يضاهي ما يكتبه الشعراء من أشعار للأطفال في البلاد المتحضرة. فأراد أن يصل بأدب الطفل العربي إلى مستوى أدب الطفل في الدول المتقدمة التي سبقتنا في هذا الميدان. كما أراد أن تكون حكاياته وقصصه الشعرية التي نظمها للأطفال مترجمة، ومؤلفة، ومقتبسة أساسًا لبناء جيل جديد من الناشئة يتمتعون بذوق أدبي رفيع.

- نجاح تجربة أمير الشعراء في نظم الحكاية للأطفال المصريين بباريس، إبان إقامته بفرنسا واضح من خلال استيعابهم لهذا اللون الأدبي واستئناسهم به، فتحققت لديهم المتعة والمنفعة. بذلك لاحظ شوقي أهمية هذا اللون من الأدب للصغار والناشئة، بعد أن أدرك ولع الطفل بهذا الجنس الأدبي وأهميته ودوره في تحبيب القراءة للأطفال.

- دعوة الشاعر لصديقه خليل مطران إلى التضامن وتضافر الجهود بين سائر الأدباء والشعراء لإيجاد أدب للطفل وتأصيله كجنس مستحدث في أدبنا العربي لما تتسم به منظوماته الشعرية من سمات فنية عربية وأوروبية.

وهكذا دخل أحمد شوقي عالم الأطفال في وقت لم يجرؤ فيه كبار الشعراء والأدباء على التأليف للصغار. وكانت كتابته ضمن مشروع التحديث الشعري الذي دعا إليه الشاعر، وهو في باريس في زمن كانت فيه كل الفنون والآداب حكرًا على الرجل، ولم يكن فيه للطفل والمرأة مكان.

وقد كتب شوقي عن الأطفال كما كتب لهم. فما كتبه عن الأطفال يخص ما كتبه عن أولاده، (حسن، وعلي، وأمينة)، بالإضافة إلى شعر المناسبات عن الأطفال. داعيًا إلى الاهتمام برعايتهم وتكوينهم. أما الشعر الذي كتبه شوقي للأطفال فيتضمن مجموعة من الحكايات الشعرية الغنائية الواردة على لسان الحيوان. وقد ورد ذلك في بابي "الحكايات" و"الخصوصيات". بالإضافة إلى مجموعة من الأناشيد والأغاني التي يتضمنها "ديوان الشوقيات" كتبها شوقي للأطفال وعن الطفولة بصفة عامة.

وبخصوص الحكاية على لسان الحيوان يرى محمد غنيمي هلال أنها "حكاية ذات طابع خلقي وتعليمي في قلبها الأدبي الخاص بها، وهي تنحو منحى الرمز في معناه اللغوي العام، لا في معناه المذهبي". ويضيف الباحث إلى أن العربية قد أثرت بدورها في الفارسية الحديثة، إذ بعد أن فقد الأصل البهلوي الذي ترجم عنه ابن المقفع أصبحت الترجمة العربية لكتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفع أصلاً لكل ترجمة في سائر اللغات. والحكاية على لسان الحيوان ليست بجديدة على الأدب العربي كما سبقت الإشارة وليست بجديدة على المجتمع المصري في ذلك الوقت، فقد سبق محمد عثمان جلال أحمد شوقي إلى أدب الطفل ويمكن أن نقول أن محاولته هي المحاولة العربية الأولى في ترجمة حكايات "لافونتين" إلا أن هذه الترجمات لا ترقى إلى المستوى الفني والإبداعي لأمير الشعراء الذي يعتبر حسب غنيمي هلال أعظم من برع في نظم هذه الحكايات في الأدب العربي الحديث وهو خير من حاكي لافونتين في هذا الجنس الأدبي في العربية بجميع خصائصه الفنية. وسنورد نموذجاً من حكايات شوقي التي يحاكي فيها طريقة لافونتين وهي حكاية "فأر الغيط وفأر البيت" وعنوانها عند لافونتين (Le rat de ville et

(le rat des champs) إذ نجد في حكاية لافونتين الكثير من العبر التي يمكن أن يستنتجها الأطفال من خلال تجربة فأر الريف، يقول لافونتين:

Autrefois le Rat de ville / Invita le Rat des champs,

D'une façon fort civile, / A des reliefs d'Ortolans

Sur un Tapis de Turquie / Le couvert se trouva mis.

Je laisse à penser la vie / Que firent ses deux amis.

Le régal fut fort honnête, / Rien ne manquait au festin;

Mais quelqu'un troubla la fête / Pendant qu'ils étaient en train.

A la porte de la salle / Ils entendirent du bruit;

Le Rat de ville détale; / Son camarade le suit.

الحكاية كما نلاحظ عند لافونتين تنطق بالحكمة والموعظة على لسان فأر الريف الذي استغنى عن كل ما لذ وطاب من الأكل الشهى، وهو في ضيافة فأر المدينة وفضل الاكتفاء بما يحصل عليه من طعام في الحقول مقابل العيش في أمن وسلام بعد التجربة التي مر بها. وقد سعى شوقي إلى نفس الفكرة في قصيدته "فأر الغيط وفأر البيت". يقول شوقي:

يُقال: كانت فأرةُ الغِيطانِ تَبِيهُ بَابِئِهَا على الفِيرانِ

قد سَمَّتِ الأكْبَرَ نُورَ الغَيْطِ وَعَلَّمَتْهُ المَشْيَ فوقَ الخَيْطِ

فَعَرَفَ الغِياضَ و المَرْوجا وَأَتَقَّنَ الدُّخُولَ والخُرُوجا

وصارَ في الحِرْفَةِ كالآباءِ وعاش كالفلّاحِ في هناءِ

وَأَتَعَبَ الصَّغِيرُ قَلْبَ الْأُمِّ
بِالْكِبَرِ، فَاحْتَارَتْ بِمَا تُسَمِّي
فَقَالَ سَمِينِي بِنُورِ الْقَصْرِ
لَأُنِّي - يَا أُمُّ - فَأُرَ الْعَصْرِ
إِنِّي أَرَى مَا لَمْ يَرِ الشَّقِيقُ
فَلِي طَرِيقٌ، وَلَهُ طَرِيقُ

لَأَدْخُلَنَّ الدَّارَ بَعْدَ الدَّارِ
وَثَبًا مِّنَ الرَّفِّ إِلَى الْكَرَارِ
لَعَلَّنِي إِنْ ثَبَتَتْ أَقْدَامِي
وَنَلْتُ - يَا كَلَّ الْمَنَى - مَرَامِي
آتِيكَمَا بِمَا أَرَى فِي الْبَيْتِ
مِنَ عَسَلٍ، أَوْ جُبْنَةٍ، أَوْ زَيْتِ
فَعَطَفْتُ عَلَى الصَّغِيرِ أُمَّهُ
وَأَقْبَلْتُ مِنْ وَجْدِهَا تَضُمُّهُ
تَقُولُ: إِنِّي - يَا قَتِيلَ الْقَوْتِ -
أَخْشَى عَلَيْكَ ظُلْمَةَ الْبُيُوتِ
كَانَ أَبُوكَ قَدْ رَأَى الْفَلَّاحَا
فِي أَنْ تَكُونَ مِثْلَهُ فَالَّاحَا
فَاعْمَلْ بِمَا أَوْصَى تُرْخَ جَنَانِي
أَوَّلَا، فَسِرْ فِي ذِمَّةِ الرَّحْمَانِ

نلاحظ أن شوقي قد أضاف في نسيج الحكاية التي اقتبسها عن لافونتين وإن كانت تهتم بنفس القيم. أما مضمون الحكاية عند شوقي فيختلف في أساسه عن مضمون الحكاية عند لافونتين. فهو لم يتخذ فكرة لافونتين الأصلية. فمن خلال تجربة فأرة الغيطان وابنيها نور الغيظ ونور القصر، فالابن الأكبر (نور الغيظ) علمته أمه كيف يخرج ويمشي في الحقول والمروج ليعيش عيشة الفلاح السعيد فاستجاب لرغبتها، وعاش في أمن وسلام أما الابن الأصغر الذي سمته نور القصر نزولا عند رغبته لأنه يرى أنه فأر العصر، ففضل حياة البذخ ودخل البيوت واحترف اللصوصية التي أفقدته ذنبه ثم إحدى

أرجله إلى أن صادفته أمه مرة وقد لقي حتفه بعد أن سُحِقت عظامه. وهكذا نلاحظ أن الحكايتين
معا تنطقان بالحكمة والموعظة وهو ما قصد إليه كل من لافونتين وشوقي. فالحكايتان تحملان مغزى
أخلاقيا، وأديبا، وتربويا، وتعليميا.

وترجم شوقي كذلك الحكاية الخرافية الواردة على لسان الحيوان (Les Fables). يقول في قصيدة
الدَّيْكُ الهِنْدِيُّ والدَّجَاجُ البَلْدِيُّ:

تَخْطِرُ فِي بَيْتٍ لَهَا طَرِيفٌ	بَيْنَا ضِعَافٌ مِنْ دَجَاجِ الرِّيفِ
فَقَامَ فِي الْبَابِ قِيَامَ الضَّيْفِ	إِذَا جَاءَهَا هِنْدِي كَبِيرُ الْعُرْفِ
وَلَا أَرَاهَا أَبَدًا مَكْرُوهَا	يَقُولُ: حَيَّا اللَّهَ ذِي الْوُجُوهَا
يَوْمًا ، وَأَقْضِي بَيْنَكُمْ بِالْعَدْلِ	أَتَيْتُكُمْ أَنْشُرَ فِيكُمْ فَضْلِي
عَلَيَّ ، إِلَّا الْمَاءُ ، وَالْمَنَامُ	وَكُلُّ مَا عِنْدَكُمْ حَرَامُ
وَفَتَحْتُ لِلْعَلَجِ بَابَ الْعُشْرِ	فَعَاوَدَ الدَّجَاجُ دَاءَ الطَّيْشِ
يَدْعُو لِكُلِّ فَرْخَةٍ وَدِيكَ	فَجَالَ فِيهِ جَوْلَةَ الْمَلِكِ
مُتَمَتِّعًا بِدَارِهِ الْجَدِيدَةِ	وَبَاتَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ السَّعِيدَةِ

والملاحظ أن الحكاية ذات بعد سياسي هي من الحكايات التي تعرض لشؤون البلاط والساسة
والحكام، رغم طابعها الفكاهي، الترفيهي؛ إلى أن يقول في نهاية القصيدة:

فَضَحِكَ الْهِنْدِيُّ حَتَّى اسْتَلْقَى	وَقَالَ: مَا هَذَا الْعِمَى يَا حَمَقِي؟!
مَتَى مَلِكُكُمْ أَلْسَنَ الْأَرْبَابِ ؟	قَدْ كَانَ هَذَا قَبْلَ فَتْحِ الْبَابِ !

وبعض مقطوعات شوقي لا تلائم مرحلة الطفولة، فهي عسيرة الفهم لما تتسم به من تعقيد لغوي من حيث بناء التراكيب والصور الشعرية، التي تستعصي على أفهام الصغار كما نجد في قصيد "ولد الغراب" وهي حكاية شعرية وضعها شوقي على لسان الطير، يقول في مطلع القصيدة:

ومهد في الوكر من ولد الغراب مزقق

ولا أدري فيما يخص هذه الحكاية إن كان شوقي قد اقتبس فكرتها عن حكايات لافونتين فلم أجد في ديوانه ما يثبت ذلك. فإذا كانت فارة الغيطان في الحكاية السابقة شديدة الحرص على ولدها، الذي لم يأخذ بنصيحتها فلقي حتفه، فأما الغراب في هذه الحكاية لم تأخذ حرصها في الرفق بولدها وتعليمه الطيران. وهي من الحكايات الموجهة للأطفال والنساء معا كما أنها غنية بالعبير وتتضمن دعوة شوقي الصريحة للأمهات للعناية بأبنائهن، يقول في نهاية المقطوعة:

وكما ترفق والداك عليه لم تترفقي

وبالإضافة إلى ما أنتجه شوقي من حكايات وقصص شعرية، نجده يقترب أكثر في إنتاجه الشعري من عالم الطفولة فخص الطفل بأغاني وأناشيد متنوعة المضامين تبعا لمراحلهم العمرية، وقد لقيت هذه الأناشيد شهرة كبيرة في العالم العربي. يقول في نشيد المدرسة.

أنا المدرسة اجعلني كأم، لا تمل عني

ولا تفزع كماخوذ من البيت إلى السجن

كأنني وجه صياد وأنت الطير في الغصن

ولابد لك اليوم - وإلا فغدا - مني

أو استغن عن العقل إذن عني تستغني

ولا تفزع كماخوذ من البيت إلى السجن
أنا المصباح للفكر أنا المفتاح للذهن
أنا الباب إلى المجد تعال ادخل على اليمن
غداً ترتع في حوشي ولا تشبع من صحتي

القصيدة كما يبدو موجهة لأطفال المدارس إذ أن الشاعر ينحاز إلى الاستعمال اللغوي الأكثر سهولة عكس نظمه لمعظم مقطوعاته الشعرية؛ فالألفاظ مباشرة والصور الفنية غير مكثفة، وقد لقيت هذه المقطوعة استجابة كبيرة من طرف أطفال المدارس في العالم العربي، بل يمكن القول إنه النشيد الأكثر تردداً بين الأطفال، كما لقيت تقديراً من طرف المشتغلين في حقل التربية والتعليم.

وقد خص أحمد شوقي أبناءه الثلاثة (حسين، وعلي، وأمينه) بمقطوعات شعرية تعبر عن أبوة الشاعر، وحبه لأبنائه. يقول في قصيدة "أمينه" حين اكتملت بنته حولاً يصفها في هذا العمر:

أُمينتي في عامها الأول مثل الملك
صالحة للحب من كل، وللتبرك
كم حقق القلب لها عند البكا والضحك

كما يقول في قصيدة "طفلة لاهية" يهنئها بستنتها الثانية:

أمينه، يا بنتي الغالية أهنئك بالسنة الثانية
وأسأل أن تسلمي لي السنين وأن تُرزقي العقل والعافيه
وأن تُقسمي لأبّر الرجال وأن تلدي الأنفس العاليه

ولكن سألْتُكَ بالوالدينِ وناشدْتُكَ اللَّعَبَ الغاليه

وهكذا نستخلص، من خلال اطلاعنا على بعض النماذج الشعرية التي نظمها شوقي للأطفال والناشئة، أن الشاعر قد أدرك النقص الكبير الذي يعاني منه الأطفال في العالم العربي. فصورة الطفل العربي في عصره، لم تكن في الدول العربية إلا صورة مصغرة للكبار، أي مرتبطة بجانب التأديب والتهذيب، في حين أن مفهوم أدب الأطفال مختلف عن أدب الكبار، لما يستدعيه من اعتبارات فنية متعددة لها أهداف تربوية، وأدبية، وبيداغوجية.

ولعل شوقي أول من أدرك هذا الجانب التعليمي التربوي، والخيالي الترفيهي في أدب الطفل. كما انه في محاكاته لم يكن مترجماً لحكايات لافونتين، كما يدعي بعض النقاد بل أضاف عليها من وحي شاعريته وفيض عبقريته، ورؤيته الشعرية، وشخصيته الرقيقة القريبة إلى عالم الطفولة، أي عالم البراءة والجمال. ولم يسع الشاعر أن يعبر عن مشاعر أبوته، من خلال تجاربه الذاتية مع أولاده وحفدته.

ورغم أن تجربة الشاعر في الشعر الطفلي كانت تجربة قصيرة، إلا أنها تجربة رائعة. وبذلك يبقى شوقي أول من دعا وأبدع في كتابة أدب للطفل العربي، في نهاية القرن التاسع عشر. إلا أنه لا أدري إلى أي حد تستجيب أناشيد شوقي ومقطوعاته، لمعايير الأدب الحديث في أدب الطفل، وهذا موضوع دراسة خاصة. وإلى أي حد يستطيع فيه كبار الشعراء النظم في هذا اللون الأدبي بنماذج الشعرية المتنوعة.

في الحقيقة التأليف للأطفال مغامرة، قد تُفقد القصيدة، في بعض الأحيان فنياتها المعهودة، وقد تُفقد الشاعر إبداعيته وشهرته الأدبية. فللطفل قاموسه اللغوي الخاص به، ويزداد حجم هذا القاموس بانتقاله من مرحلة عمرية إلى أخرى. بذلك تكون الكتابة للطفل مغامرة صعبة، وصعوبتها تتمثل في ما تقتضيه العملية التواصلية، من تبديد التناقض بين المؤلف (الشاعر) والمتلقي (الطفل).

ومن المؤكد أن شوقي قد بذل في بعض مقطوعاته جهداً كبيراً في التبسيط تارة والتهذيب تارة أخرى. فنظم للأطفال أشعاراً تنم عن ذوق عربي أصيل، ولو أن بعض مقطوعاته قد لا تناسب السنّ

والمستوى اللغوي والعقلي للطفل، كما سبقت الإشارة. إلا أنّ معظم إنتاجاته لقيت استجابة الصغار، كما أرضت عواطفهم بصورها التخيلية الفنية، وأوزانها الغنائية السهلة. ويمكن أن نعتبر أنّ ما كتبه شوقي للأطفال، رغم قلّته من أدب الأطفال الخالد، يمكن أن تتداوله أجيال متعددة، ولا زالت الأجيال المعاصرة تستمتع به كما استمتع به الجيل السابق.

وهكذا يمكن أن نقول إنّ خروج أحمد شوقي عن القصيدة العمودية لم يكن تخليّاً عنها، بل كان توسيعاً لمجال القول الشعري، واختباراً لقدرة العربية على أن تحتضن أشكالاً لم تألفها من قبل. ففي حكاياته وأناشيده التي كتبها للأطفال، التفت إلى متلقٍ ظلّ غائباً عن اهتمام الشعراء، فاستعار من لافونتين قالب الحكاية على لسان الحيوان، وأعاد صياغتها بروح عربية ورؤية تربوية، فلم يكن ناقلاً بل محاوراً يضيف ويحوّر. وفي "أسواق الذهب"، في آخر مراحل حياته، عاد إلى النشر فكتبه بنفس الشاعر، ووصل فصوله بتقليد عربي عريق كان يقيس الكلام بالذهب والجوهر، فجعل من الشعر المنتثر فضاءً للتأمل في الحرية والوطن والإنسان والزمن.

وبين البداية والنهاية تتضح ملامح مشروع واحد، قوامه أن الموروث ليس حدّاً تقف عنده الكتابة، وأن الانفتاح على ثقافة الآخر لا يعني الذوبان فيها. فشوقي جمع بين ذاكرة الشعر العربي وأسئلة عصره، وسعى إلى أن تكون الكتابة الأدبية في خدمة الطفل والأمة والذائقة معاً.